

٤٩ - من عبيد إلى أمراء دراسة

في صعود المستضعفين في صدر الإسلام

تشكل تجربة صعود المستضعفين في صدر الإسلام، نموذجًا فذاً لعملية ثورية كبرى وحراك اجتماعي لا نظير له، منغم برنين صاخب ولكنه عذب رغم أنه يبدو للوهلة الأولى صامتاً، وربما كان هذا الصمت الملحوظ علامة على عبقرية الممارسة، التي حولت هذه التجربة الفذة إلى شيء طبيعي حتى لا تكاد تحسه أو تسمعه حتى كان الأمر لا يبدو ملفتاً للنظر من شدة كونه بديهية لا تلفت نظر الرجال الذين مارسوه.

ولا شك أن تجربة الإسلام الثرية في هذا الصدد على مستوي النص والتطبيق يمكن أن تصبح جذراً ثقافياً ومعرفياً لكل ثورة تحريرية ترفع راية المستضعفين في مواجهة مؤسسات الاستكبار.

أي تجربة عظيمة تلك التي ترفع سلمان الفارسي الذي كان عبداً عند أحد يهود المدينة فيصبح أميراً على الكوفة أهم إمارات الدولة الإسلامية في ذلك الوقت من خلافة عمر بن الخطاب.

هذا العبد الذي يتسابق المهاجرون والأنصار بل ورسول الله ﷺ لينسبه كل إلى نفسه، ففي يوم الخندق وقف الأنصار يقولون سلمان منا ووقف المهاجرون يقولون بل سلمان منا، فيسمعهم الرسول فيقول ﷺ «سلمان منا آل البيت».

والذي يصبح للمسلمين معلمًا ومرشدًا وحكيماً فيقول عنه الرسول ﷺ: «لقد أشبع سلمان علماً».

ويلقبه على بن أبي طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم، فقد سئل على عنه بعد موته فقال «ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت من لكم بمثل لتمان الحكيم». وهكذا فعلي يفخر بانتساب سلمان إلى أهل البيت النبوي، بل وبباهي به سائليه.

إنه سلمان الفارسي، الذي كان ذات يوم عبداً، فأصبح بالإسلام رجلاً يخرج الخليفة بنفسه لاستقباله فقد جاء سلمان إلى المدينة زائراً في خلافة عمر ابن الخطاب فجمع عمر أصحابه وقال لهم: هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان. وأي تجربة تصنع من عبدالله بن مسعود، ذلك العبد الذي يرعي الغنم في مكة لعقبة بن أبي معيط، ذلك الرجل الضعيف الجسم النحيف، القصير القامة، الفقير الأجير.. تصنع منه هذا الرجل الذي يكون أول من يجرؤ على إسراع قريش بكل وجهائها وزعمائها آيات القرآن علناً وبصوت

مرتفع.. فيتفوق بذلك على كل المسلمين الذين أسلموا في تلك الفترة من حياة الدعوة الإسلامية في بواكيرها، والذين كان منهم القوي والشريف والغني.. هذا الرجل - عبدالله بن مسعود - يصبح يوماً وزيراً في الكوفة مع أميرها في ذلك الوقت سلمان الفارسي في خلافة عمر بن الخطاب.

ويصبح بعد الإسلام من أفقه المسلمين وأكثرهم علماً، بل وأحسنهم تلاوة للقرآن الكريم، فيتعلم منه كبار الصحابة كيف يتلون القرآن، ويتعلمون منه أيضاً فقه الدين ويصبح مرجعاً لهم في أمور الدين.

يقول عنه الرسول ﷺ: «من أحب أن يقرأ القرآن.. كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»- أي عبدالله بن مسعود، والذي يطيب للرسول ﷺ أن يستمع إلى القرآن من فمه.. وهو الذي عليه أنزل، ويقول عمر بن الخطاب «لقد ملئ فقهها». ويقول عنه أبو موسى الأشعري: «لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الخبر فيكم».

اجتمع نفر من الصحابة يوماً عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقالوا له: «يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من عبدالله بن مسعود»، فيقول علي «نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم قال: اللهم إني أشهدك إني أقول فيه مثلاً قالوا وأفضل.. لقد قرأ القرآن فأحل حلاله، وحرم حرامه، فقيه في الدين عالم بالسنة».

وهو دون غيره من المسلمين يلقب بصاحب السواد أي موضع سر الرسول ﷺ وصاحب نجواه.

ثم هو الذي يقول عنه الرسول ﷺ: «لو كنت مؤتمراً أحداً دون شوري المسلمين، لأمرت ابن أم عبد»، بل ويجعله إماماً للهدي لكل الصحابة فيقول عنه «تمسكوا بعهد ابن أم عبد» أي تجربة تلك التي صنعت من هذا العبد كل هذا الذي ذكرناه بل ويعرف الجميع له الفضل، ويعرف أيضًا عن نفسه بلا عقد أو حساسيات، فيقول هو عن نفسه «والله ما نزل من القرآن شيء، إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، ولو أعلم أحدًا تمتطي إليه الإبل أعلم مني بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم».

من عبد إلى وزير..

من عبد إلى معلم ومدرسة في الفقه ومنازة هداية للمسلمين.

من عبد إلى صاحب السواد.

من عبد إلى أعلم الناس بكتاب الله قراءة وتفسيرًا وأسباب نزول، فقيه في الدين عالم بالسنة.. من عبد إلى إمام لأجيال بعد أجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أي تجربة تلك التي صنعت من سالم مولي أبي حذيفة.. الذي لا يعرف أحد اسم أبيه ولا هو نفسه صنعت منه إمامًا للمسلمين المهاجرين

من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قباء وفيهم من فيهم من الأشراف والأغنياء.. هذا الذي كان عبدًا ذات يوم عند أبي حذيفة فيسلما معًا ويعتقه أبو حذيفة ثم يزوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة. بل ويتحول إلى مصدر فخر للرسول ﷺ، وفخر بالتالي لكل مسلم إلى يوم القيامة أن يكون من نفس الأمة التي منها سالم مولي أبي حذيفة الذي لا يعرف أحدًا اسم أبيه فيقول عنه الرسول ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك».

هذا الذي كان عبدًا يومًا في مكة، وكان فيها خالد بن الوليد سيدًا ابن سيد هو نفسه الذي يقف أمامه خالد بن الوليد متهمًا يسمع قائمة أخطائه من سالم أثناء الخروج معه في سرية توجهت إلى بعض القبائل العربية بالقرب من مكة بعد الفتح وارتكب خالد فيها بعض الأخطاء، وكان قائدًا لها فإذا بسالم يواجهه بتلك الأخطاء دون خجل أو حساسية.

أي تجربة فريدة تلك التي صنعت من صهيب الرومي، الذي كان عبدًا في مكة ذات يوم، هو نفسه الذي يوصي عمر بن الخطاب قبيل موته بعد طعنه بالخنجر علي يد أبي لؤلؤة المجوسي، يوصي بأن يكون صهيبيًا هو من يؤم المسلمين في الصلاة حتي يتم اختيار خليفة جديد، ويظل صهيب يفعل ذلك ثلاثة أيام حتي تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين. بل ويوصي عمر بأن يكون صهيب مراقبًا لأعمال الستة الذين أوكل إليهم

أمر اختيار الخليفة من بينهم، وبينهم أكبر زعماء المسلمين في ذلك الوقت. وهو الذي ينزل فيه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٤٧) لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط، إلا كنت حاضره ولم يبايع بيعة قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزوة قط أول الزمان أو آخره، إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله، وما خاف المسلمون أمامهم قط إلا كنت أمامهم ولا خافوا وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو أبداً حتي لقي ربه.

وأي تجربة متميزة تلك التي تجعل بلالاً العبد الحبشي الأسود هو الذي يؤذن للصلاة، وهو شرف كان يتمناه كل الصحابة الكبار والصغار، بل وهو من يمسك به الرسول من ناحية، وبأسامة بن زيد بن حارثة من ناحية أخرى ويدخل بها الكعبة يوم فتح مكة، وكأنه ﷺ يريد أن يؤكد تجربة الإسلام العظيمة في صعود المستضعفين، لأنه يوم النصر الأكبر لا يدخل الكعبة وعن يمينه عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق، أو خالد بن الوليد أو عثمان بن عفان أو عبدالرحمن بن عوف أو حتي العباس بن عبدالمطلب بل يمسك بلال العبد الحبشي الأسود الذي كان يوماً عبداً عند أمية بن خلف من ناحية، ومن الناحية الأخرى أسامة بن زيد بن حارثة أي ابن عبد آخر كان ذات يوم عبداً عند السيدة خديجة فوهبته لمحمد فأعتقه.

ولعل وجهاء مكة وكل أهلها قد فهموا هذا المعني نفسه عندما أمر

الرسول ﷺ بلالاً بالصعود فوق أعلى مكان في الكعبة وأن يؤذن، فوقف ثلاثة من زعمائها هم أبوسفيان بن حرب - وكان قد أسلم منذ ساعات - وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وكانا لم يسلمها بعد يتحدثون فيقول عتاب بن أسيد وعينه على بلال وهو يرفع الأذان ويعلن انتصار الحق.. لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون حضر هذا فيسمع منه ما يغيظه.. وهكذا من عبد في مكة إلى صاحب إعلان نهاية الكفر فيها وشروق فجر جديد.. وبإله من شرف عظيم. بلال بن رباح من عبد في مكة إلى رجل يفخر به كل مسلم بل وأشهر من عرف بين أجيال المسلمين، بل وتقوم باسمه حركات ومؤسسات، بل ويندر أن تقابل مسلماً عربياً أو أعجمياً، أفريقي أو آسيوي، أوروبي أو أمريكي.. ولا يعرف بلالاً.. سواء كان هذا المسلم رجلاً كبيراً أو طفلاً صغيراً، من الخواص أو من العوام.

هذه التجربة المنقطعة النظير - هي التي تصنع بن زيد بن حارثة هذا العبد لدي السيدة خديجة في مكة التي تهديه لزوجها محمد ﷺ فيحرره ويتبناه إلى أن ينزل قرآنا ينهي عادة التبني، هذا العبد ينزل فيه قرآن من فوق سبع سماوات.. ويصبح هو نفسه قائدا لجيش المسلمين بما فيه من كبار الصحابة ووجهاء القوم في غزوة مؤتة، ومن قبلها كان هو قائد أكثر من سرية وأميراً للقوات الزاحفة إلى معارك الجموح، والفيصل، وحسمي وغيرها.

هذا العبد القصير الأسمر، أفتس الأنف هو نفسه «الذي لا يرسله الرسول ﷺ في جيش إلا أمره عليه ولو بقي حيًا بعد الرسول ﷺ لاستخلفه» كما تقول السيدة عائشة من عبد إلي أمير، بل ولو عاش بعد رسول الله لأوصي الرسول ﷺ به ليكون خليفة للمسلمين.

بل وابنه أسامة بن زيد بن حارثة، التي كانت أمه أيضا من العبيد «أم أيمن» وهو أيضا الأسود الأفتس الأنف مثل أبيه، هو وبلال من يدخلان بصحبة رسول الله ﷺ إلى الكعبة يوم الفتح.

وهو الذي يجعله الرسول ﷺ أميرًا لجيش أسامة أي لذلك الجيش الذي حمل اسمه حتي اليوم، هذا الجيش الذي كان فيه عمر وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة جنودًا تحت إمرة القائد أسامة بن زيد الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره في ذلك الوقت.

هذه التجربة التي لا تستطيع الكلمات وصفها تستحق، هي من تجعل من خباب بن الارت عبد أم أنمار، ذلك الحداد الذي كان يصنع السيوف في مكة هو من يعلم إخوانه المسلمين الأوائل آيات القرآن، وهو الذي كان يعلم فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد القرآن عندما داهمهم عمر بن الخطاب في القصة المعروفة لإسلام عمر.

ومن خلف تلك الممارسة الفذة.. كان النص قرآنًا وسنة يؤكد هذه

التجربة بل يصفها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ ويقول الرسول ﷺ: «ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى». ويقول ﷺ: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى»، ويقول ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب»، ومن خلف النص والممارسة كان المنهج الإسلامي بشموله وروعته مهيمنا.
